الأسطورة القبائلية البربرية في كتابات المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962)

د/عبد السلام همال

جامعة محمد بوضياف-المسيلة-

مقدمة:

لم يترك الفرنسيون شأننا من شؤون الجزائر إلا واهتموا به وكتبوا فيه، وهذه الورقة تلقي نظرة على الأقاليم الفرنسية التي برزت خلال الاحتلال الفرنسي بكتاباتها عن تاريخ الجزائر في مختلف عهوده وعصوره وعن العادات والتقاليد، واللهجات، والأدب الشعبي وإلى ما ذلك، وهذه الكتابات ما تزال إلى حد الآن تثير الاهتمام ومحل إقبال الدارسين والمهتمين بتاريخ الجزائر وقضاياها وثقافتها، غير أن الجانب السلبي في هذه الكتابات هو ارتباطها بالسياسة الاستعمارية الفرنسية ومخططاتها الجهنمية الرامية إلى تفتيت الشعب الجزائري، وتفكيكه، وتقسيمه وبالتالي إضعاف مقاومته للمستعمر.

والورقة ستركز على نشأة وتطور المدرسة التاريخية التي ضمت هذه النخبة الفرنسية من أهل القلم، ودور هؤلاء في إشعال الفتن وبث الفرقة والحصام بين أبناء البلد الواحد ويمكن اعتبار ما يسمي بالأسطورة القبائلية نموذج قائم بذاته يعبر بوضوح عن مدى خطورة هؤلاء على وحدة الشعب الجزائري، والمقال يتطرق إلى نشأة الأسطورة القبائلية، والملابسات التاريخية التي ظهرت فيها، وتكشف الأعياب السياسة الاستعمارية وارتباطها الوثيق مع هذه الأقاليم.

في سنة 1875م كتب الباحث، والمترجم العسكري الفرنسي ارنست مرسى Ernest Mercier (1820-1907) «مرت أربع وثلاثون سنة على احتلال الجزائر. وخلال هذه الفترة ظهرت

مدرسة تاريخية حقيقة بما¹» ومن بين أعلام هذه المدرسة الذين ذكرهم الباحث المذكور: بيريرجي Berbrugger ولاكروا Lacroix، وبول Poulle. وواصل مرسى حديثه مفتخرا.

«بفضل هؤلاء العلماء الذين نذكر غالبا أعمالهم، أنبرت نقاط كثيرة من تاريخ شمال إفريقيا، كان يحيط بها الظلام في الماضي»² وإذا كان مرسى حدد منطلقات هذه المدرسة. فإن مؤرخا استعماريا آخر هو ستيفان غز Stéphane Gsell (1864 - 1932)³ بين طبيعة هذه المدرسة وأهدافها الاستعمارية في مقال كتبه عشية احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر(1830 - 1930): «إن الواقع الجديد الذي ترتب عن الحملة العسكرية على الجزائر العاصمة، فرض على المؤرخين القيام بواجبات جديدة، كإجراء بحوث عن أصول السكان الذين اصطدم بهم الجيش. وأيضا معرفة عاداتهم ونظمهم وعقائدهم. والأكثر من ذلك: دراسة الاحتلال والاستيطان الروماني لهذه البلاد. من أجل استخلاص الدروس والعبر للاستفادة منها في إدارة المستعمرة الجديدة»⁴.

وقد قسمت فترات البحث التاريخي في هذه المدرسة إلى مرحلتين - الأولى تمتد من 1830 - 1880م - والتي سماها غزال المدرسة الجزائرية القديمة⁵.

1-Ernest Mercier ,Histoire de l' Afrique septentrionale (Berbérie) Depuis les temps les plus reculés jusqu' a la conquête française.(1830) Paris , 1888,T, 1.p.2.

2-IBID T,1,P,3

3-Eugène Albertini ,Stéphane Gsell(1864-1932)Bibliographie des Travaux de Stéphane Gsell in Revue africaine(N° 73 année1932) pp21-53

4-Stéphane Gsell , Histoire et historiens de l'Algérie paris ,1931 ,p.2

5-Stéphane Gsell , op. cit. p 2.

أنظر كذلك ردود محمد الشريف ساحلي على غزال تحليلي التاريخ من الاستعمار ترجمة محمد هناد محمد الشريف بن دالي حسين منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر 2002 ص 10، ص13، ص45. أنظر ردود هشام الصفدي على غزال، نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، العدد، السنة، الثانية، جمادي الأولى، 1392، ماي -حوان 1972، ص، 172، ص، 176. أنظر كذلك أحمد السليماني تاريخنا القديم من مرآة الغرب مجلة الدراسات التاريخية العدد5 السنة 1408 - 1988 ص 46، أنظر كذلك المقدمة التي كتبها أبو القاسم سعد الله، لكتاب عثمان الكعك، موجز تاريخ الجزائر، بيروت، 2003، ص، 6.

ويبدو أن غزال بحكم تخصصه في تاريخ المغرب القديم كان مقربا جدا من كبار رجال الحكم، بقول العروي:اهتمت الإدارة الاستعمارية الفرنسية اهتماما بالغاً بدراسة تاريخ المغرب القديم. كان ولاية الجزائر، والمقيمون العامون في تونس، والمغرب الأقصى يعتنون شخصيا بالجغريات، كما كانت إدارة الداخلية هي الساهرة على مصلحة الفنون الجميلة، فلا غرابة إذا وجدنا في البحوث التاريخية التي صدرت آنذاك أثارا واضحة للفكر الاستعماري، أنظر عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، (ط5)، المركز الثقافي العربي، 1996، الكتاب الأول، ص، 47.

في حين يذهب الباحث محمد العربي معريش، إلى أن المدرسة الاستعمارية القديمة تعود إلى ما قبل 1830. حيث قدمت أبحاثاً عن تاريخ الجزائر، والمغرب الأقصى واستمرت إلى مطلع الثمانينيات، وهو تاريخ قريب من احتلال تونس وأيضاً استعداد فرنسا لاحتلال المغرب الأقصى فيما بعد¹. والمؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله، أطلق عليها اسم عهد المؤرخين العسكريين² لأن معظم الباحثين خلال هذه المرحلة كانوا من العسكريين العاملين في صفوف الجيش الفرنسي المختل. والظاهر أن سنة 1837م كانت حاسمة في حياة هذه المدرسة ففيها أنشأت وزارة الحربية لجنة علمية سميت (لجنة اكتشاف الجزائر العلمي)³. وقد ضمت هذه اللجنة عدة تخصصات مثل الآثار، الاثنوغرافيا، الجغرافيا التاريخ، الجيولوجيا، النبات، المعادن والتعدين وغير ذلك⁴. وقد ترأسها الضابط بوري دي سان فسان -Bory de saint-Vincent⁵. أما أعضاء اللجنة فلم يبق ثابتاً كما حدد أول الأمر. إما بموت البعض أو استقالة البعض الآخر. ولكنها في نهاية الأمر اقتصر على عضوية عشرين عضواً فقط⁶.

وقد حطت رحالها بالجزائر سنة 1839م. إلا أنها شرعت في العمل سنة 1840، واختيرت سنة 1842م كآخر أجل لتتقدم أعمالها⁷ واللافت للانتباه أن أغلب أعضاء اللجنة من العسكريين. وبعض الباحثين الذين شاركوا في هذه اللجنة ما تزال أسماء أبحاثهم تتردد إلى اليوم. من أمثال بيليسيه دي رينو، pellissier de Reynaud، وكاريت Carette ودوما Daumas وترملي Trumelet ورين، Rinn وغيرهم، وقد غلب على إنتاج اللجنة الترجمة أكثر من التأليف⁸. وكان الدافع وراء إنشاء اللجنة العلمية «معرفة شعب وقع في قبضة الحضارة الأوربية⁹». وجمع المعلومات عن الخصم من أجل

1- محمد العربي معريش مقارنة بين ما تناول المؤرخون الفرنسيون لبعض قضايا تاريخ المغرب الأقصى، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد الخامس، ص، 177.

2- أبو القاسم سعد الله أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر (ط3) بيروت، 1990، ج، 1، ص، 19-20.

3-Stéphane Gsell, op.cit,p-8, Charles –André julien histoire de l'Algérie contemporaine presses universitaires de France,1964,T1,P,162.Benjamin stora ,histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954 par éditions la découverte 1999,p,18.

4- أنظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر النقائي، ج، 6، ص، 82.

5-Charles –André julien, op.,cit,T , p,162

6- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر النقائي ج، 6، ص، 80.

7-Charles –André julien, op., cit., T , 1, p , 163.

8- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج، 6، ص، 87.

9- المرجع نفسه، ج، 1، ص، 18-19.

السيطرة والاحتلال¹. وقد كان هؤلاء الباحثون يقيمون مع الجيش الاستعماري ويتحركون وينتقلون معه ويدرسون المناطق التي وقعت تحت سيطرة الجيش². والواقع أن الفرنسيين لم يخفوا الطابع الاستعماري لهذه الدراسات. فقد قال أحدهم هو غوستاف مرسى Gustave Mercier «إن البحث العلمي سار جنبا إلى جنب الاحتلال العسكري وأن الاحتلال العلمي قد سار إلى جنب تلقيح الأرض³» وهو محق في ذلك. لأن احتلال الجزائر لم يتم بقوة الحديد والنار فقط. وإنما بكل أدوات الغزو الفكري، كالمطبعة والصحيفة والمستشرقين⁴.

واللجنة العلمية المذكورة تشبه تلك التي أنشأها نابوليون أثناء حملته على مصر. والتي وضعت حصيلة أبحاثها في كتاب وصف مصر⁵. وعلى غرار لجنة نابوليون أصدرت اللجنة العلمية في الجزائر أبحاثها واتسمت بعض الأعمال بالكراهية، والحقد على العرب والمسلمين⁶. أما المرحلة الثانية من عمر هذه المدرسة فقد حددها سعد الله بين (1880-1954). والأصح أن نهاية هذه المدرسة التاريخية الاستعمارية كان في سنة 1962 وهي السنة التي نالت فيها الجزائر استقلالها. والتي واكبت الهروب الجماعي للمستوطنين الأوروبيين أيضا. وليس سنة 1954.

وسنة 1880م هي التي ظهر فيها قانون إنشاء المدارس العليا في الجزائر، تلك المدارس التي تحولت سنة 1909م إلى جامعة الجزائر⁷. وقد تميزت هذه المرحلة من عمر هذه المدرسة بالأتي: تراجع العسكريين الذين برزوا في المرحلة الأولى وحل محلهم أهل الاختصاص من الباحثين والمؤرخين المحترفين⁸ أما البحث فقد اتسع ليشمل كامل تاريخ إفريقية الشمالية أي تونس والمغرب الأقصى⁹. وقد تزامن ذلك مع بسط فرنسا لسيطرتها على هذين البلدين، ومن إيجابيات هذه المدرسة أن الباحثين والمؤرخين عرفوا بالجدية والصرامة فتنوع الإنتاج وتكاثر عبر الأيام.

1- أبو القاسم سعد الله: آراء وابحث في تاريخ الجزائر، ج،1، ص،18

P.Lucas,J.C VAtin L'algerie des anthropologues,Paris,1982 p,13 2

3- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج،6، ص،87

4- آراء وابحث في تاريخ الجزائر، ج،1، ص،19.

5- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج،6، ص،87 Charles -André Julien , op.,, T1, p , 162 , , 1

6- أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج،6، ص،87.

7- أبو القاسم سعد الله، آراء وابحث في تاريخ الجزائر، ج،1، ص،23.

أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه .

8 - Stéphane Gsell,op.cit,p,9

9-Gsell ,op. Cit.p, 9

ويبدو أن التخصص كان يجري بطريقة تختلف عما هو سائد في هذه الأيام. فقد يكون الباحث أتريا ومؤرخا لا و مترجما للنصوص العربية. وربما جمع تخصصات كثيرة ولعل روني باسى René Basset (1855_1924)¹ خير من يمثل هذا الصنف المتميز من الباحثين. فقد كانت اهتماماته متنوعة: البيبلوغرافيا، والتقارير العلمية، والتاريخ الديني، والإثنوغرافيا، والفنون الشعبية، والتاريخ، والجغرافية الإفريقية، واللغات الإفريقية، بالإضافة إلى اللغات العربية والبربرية والإثيوبية. وتجدد الإشارة إلى أن بيبلوغرافيا أعمال باسى وصلت صفحاتها إلى الأربعين. أما تقدم الكتب، والوثائق الفلكلورية التي بعثها إلى مختلف الدوريات فتعد بالمئات². ويجب التذكير هنا أن هذه المدرسة لم يقتصر نشاطها على اختصاص واحد معين خلال هذه المرحلة الثانية، من عمرها وإنما كانت اهتماماتها متنوعة في اللغة والأدب، والفن والفلكلور، والآثار، والإثنوغرافيا، والتاريخ. ويبدو أن الهيئات الاستشرافية، في القارة الأوروبية، كانت راضية عن أعمال هذه المدرسة. والدليل على ذلك اختيار مدينة الجزائر العاصمة، كمقر لانعقاد المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين. الذي انعقد فعلا في الجزائر في شهر أفريل سنة 1905. وشارك فيه خمسمائة مستشرق وترأس أشغاله روني باسيه المذكور سابقا عن جدارة واستحقاق³. ويظهر أن الرؤية الموضوعية للأحداث التاريخية كانت غائبة إلى حد بعيد وعلى العكس كانت الأحكام المسبقة هي السائدة⁴.

1-R. Le tourneau ,le moyen âge et les temps modernes in revue Africaine, centenaire de la société historique Algérienne (N° -446-449-année (1956) p,123.

2-Alfred Bel ,René Basset in revue africaine ,(N25 (65,1924).,pp-12-19.

3-M.H. masse les études arabes en Algérie 1830-1930, in Revue africaine (N°74 ,1933).,p.235.Revue africaine(N° 49 , année 1905) pp303-351.

4 -جمال قنان، مدرسة التاريخ الاستعماري بين الأيديولوجية، الموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد الخامس ، 130."لا أحد يستطيع اليوم وفي المستقبل القريب أن يحجر دراسات ما قبل تاريخ المغرب من قبضة أساتذة جامعة الجزائر الاستعمارية.غير أن مهمم السياسي واضح إلى حد أن تعريته لا تستلزم التسلح بالتقنيات الحديثة. إن القاري العادي، المشارك في علم التاريخ، يرى بوضوح الهوة التي تفصل نتائج محوئهم المتخصصة. فمن حقه أن يطالبهم بأن يتحلوا على الأقل بالحدر". أنظر عبد الله العروي، المرجع نفسه الكتاب الأول،ص،49. وحول الآثار السلبية للمدرسة التاريخية الفرنسية الاستعمارية يقول سليمان مظهر: "وهكذا تشكل المدرسة الاستعمارية عائقا في وجه البحوث الجديدة، إذ يبقى الباحث متمسكا بالمراجع التي تحتوي عليها.وبكلمة أخرى فإن المدرسة الاستعمارية عرقلة في طريق التحليل والإنتاج المبدع" أنظر حاجة علم النفس الاجتماعي للبحوث التاريخية ضغط المدرسة الاستعمارية على تطور البحث العلمي في ميدان علم النفس الاجتماعي، مجلة الدراسات التاريخية،العدد الخامس،ص،220.

فقد كان المؤرخون الاستعماريون، يخضعون تاريخ الشمال الإفريقي، عبر مختلف عصوره، وحقبه لأحكام جاهزة كانت تتردد باستمرار في أبحاثهم. ومع مرور الوقت أصبحت بعض الأعمال أقرب إلى الدعاية الفجة منها إلى البحث التاريخي القائم على البعد العلمي المؤسس على النية النزيهة. والهدف من وراء ذلك بدون شك هو إعطاء مصداقية للاستعمار، وتبرير وجوده في الديار المغاربية عامة والجزائرية خاصة وإليك بعض النماذج:

— شمال إفريقية استعمر منذ نهاية عصور ما قبل التاريخ: «منذ نهاية عصور ما قبل التاريخ اتخذت العلاقة القائمة بين البربر والبلدان المتوسطية الأخرى أكثر تحضرا شكلا استعماريا¹».

— عدم أهلية شمال إفريقية للاستقلال «كلما توغلنا في تاريخ شمال إفريقية لاحظنا أن كل شيء يحدث كما لو كانت هذه المنطقة قد أصيبت بعدم أهلية للاستقلال²».

— المقهورون دوما: «كلما توغلنا في الماضي لاحظنا سلسلة متصلة من الاحتلال الأجنبي فالفرنسيون حلوا محل الأتراك الذين خلفوا العرب. وكان هؤلاء العرب حلوا محل البيزنطيين الذين سبقهم الوندال وكان هؤلاء الوندال قد قاموا مقام الرومان الذين خلفوا القرطاجيين. ولا بد أن نشير إلى أن الغزاة مهما كانوا يظنون أسياذ المغرب إلى أن يخرجهم منه غزاة جدد فما أفلح الأهالي يوما في طرد الغزاة الأسياذ³». وبعض هذه الأحكام الجاهزة التي تزخر بها كتابات المؤرخين المحترفين الاستعماريين، تعود إلى نوع من الكتابة التاريخية ظهر منذ العقود الأولى التي أعقبت احتلال الجزائر سنة 1830م فيها مغالطات كثيرة، ومبالغات عديدة ولبعدها عن المعقول، أطلق عليها بعض الباحثين اسما مشيرا، قد يشير السخرية لأول وهلة هو «الأسطورة⁴».

وفي سبيل تفتيت المجتمع الجزائري والقضاء على روحه المعنوية وبث الفرقة والبلبل بين صفوفه لإجباره على الاستسلام والخنوع. حاول المستعمر تشويه كل ما يمت بصلة لهذا المجتمع بداية من عناصره البشرية، كالعرب والبربر، فهذان العنصران تعرضا بدورهما لعمليات جراحية محكمة في مخابر الاستشراق

1- أنظر، محمد شريف ساحلي، المرجع نفسه، ص،13.

2- محمد شريف ساحلي: المرجع نفسه، ص،11.

3-المرجع نفسه، ص،12.

4-Yves la Coste l'bn Khaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde édition) paris 1980,p,87,p.lucas et J .c. vatin ,l'Algérie des anthropologues , paris ,1982,p,15.

الفرنسي، فقطعت أوصال وبترت أعضاء، وتحول أبناء الوطن الواحد، إلى أشكال، وألوان فسيفساء، وجزر بشرية لا يجمعها جامع، ولا يربطها رابط. فهم: بدو وحضر، وقبائل وبطون، ومرابطين وغير مرابطين، قبائل وشاوية وطوارق وميزابين.

أما الانتماء الحضاري من دين ولغة وتاريخ وعادات وتقاليد وفلكلور فتعرضت إلى تشويه ومسح قد لا نجد له نظيرا حتى عند أشد الأنظمة العنصرية تطرفا في القرن العشرين. لأن الفرنسيين أدركوا منذ الوهلة الأولى أن الخطر الذي يهدد كيانهم ينبع دائما من عناصر الهوية الجزائرية هذه. وحتى الجغرافيا مسها التشويه فقسمت وجزئت: السهل والجبل والصحراء، والشمال والجنوب والشرق والغرب.

كل هذه المكونات البشرية والمعنوية والمادية المذكورة كانت محل دراسات وأبحاث تكفل بها في بداية العهد الاستعماري الفرنسي الباحثون العسكريون ثم أنشئت جامعة الجزائر الاستعمارية التي فتحت أبوابها رسميا سنة 1909. فواصلت المشوار وسلكت نفس الدرب وبسبب المناهج الغربية التي استخدمها العسكريون ثم الجامعيون في أبحاثهم هذه التي اتسمت غالبيتها بالمبالغة والتوهيل، والتعميم والأحكام الجاهزة المتشابهة بين معظم هذه الدراسات الضخمة. لدرجة أن القارئ لهذه الأبحاث قد يتوهم بأن كاتبها شخص واحد وليس العشرات من الأشخاص. فقد بدت هذه الدراسات مبتورة الصلة بالمواضيع التي تدعي وتزعم بأنها محل عنايتها. ولكنها في الواقع كانت هي أي الدراسات في واد والمواضيع المدروسة في وادي آخر. والسبب في ذلك يرجع إلى إصرار الباحثين الفرنسيين على استخدام البحث العلمي لأهداف سياسية استعمارية واضحة لا غبار عليها. ويظهر أن إطلاق تسمية الأساطير على هذه الدراسات يعود بالدرجة الأولى إلى نزعتها الاستعمارية. تلك النزعة التي جردت هذه الدراسات من الصبغة العلمية ومن البعد الأكاديمي المتميز عادة بالوقار والاتزان.

وقد ندرك المغزى الحقيقي لهذه الدراسات التاريخية الأساطير". إذا وضعناها في إطارها التاريخي والظروف التي ظهرت فيها وكذلك نوعية الأشخاص الذين أنجزوها.

الأسطورة القبائلية البربرية

والظاهر أن "الأسطورة القبائلية تحتل الصدارة والريادة وبها بدأت سلسلة هذه الأساطير الاستعمارية فقد ظهرت في وقت مبكر بعد سبع سنوات من سقوط العاصمة تحت الاحتلال. كما

يذهب الباحث الفرنسي أجرون Ageron¹ إلى ذلك. ويذكر نفس الباحث أن الأسطورة القبائلية مرت بعدة محطات وأن سنة 1857 م كانت آخر محطة لها² ومعنى هذا أنها لم تظهر في مرة واحدة وهذا دليل يثبت تورط الإدارة الاستعمارية في تحريك المسألة وتوظيفها سياسيا تبعا لمخططاتها الاستعمارية وفق تطور الأحداث على أرض الواقع³.

ويعترف المؤرخ الفرنسي أجرون بأن سنة 1847 كانت محطة هامة وحاسمة في حياة هذه الأسطورة⁴. ففي السنة المذكورة صدر كتاب القبائل الكبرى للضابطين فبار M. Fabar وودوما M. Daumas⁵.

وأهمية كتاب القبائل الكبرى تكمن فيما تضمنه من آراء ومواقف وأيضا في الآثار التي تركها خلفه، لا وإذا كنا لا نعرف الكثير عن الضابط الباحث فبار (ت 1849م) في حصار روما⁶ فإن زميله وشريكه في تأليف الكتاب معروف على نطاق واسع⁷. ويبدو أن تقديم نبذة عن الحياة الحافلة للجنرال دوما قد يفيد في فهم طبيعة العصر الذي عاش فيه وقد يفيد أيضا في معرفة الأبعاد الحقيقية التي كان الكتاب المذكور يهدف إلى تحقيقها. هو دوما (ملشيور جوزيف أجين) Joseph Eugène

1-Charles –Robert Ageron ,histoire de l' Algérie contemporaine , presses universitaires de France , 1979 , T,2,p,137.

2-Ibid,T,2,p,138.

3-Mahfoud Ka dache l'utilisation du fait Berbère comme facteur politique dans l'Algérie coloniale actes du premier congrès d'études méditerranéennes d' influence arabo- Berbère , Alger ,1973.p.276.

4-Charles–Robert Ageron ,op,cit,T,2,P,138 35.

5 -M.daumas et M. Fabar .la Grande Kabylie ,études historiques, paris ,1847

6-Narcisse Faucon ,le livre d'or de l'algérie ,paris ,1889 T,1,p 197.37.

7-Ibid ,T,1,PP196 -197 38.

8-أنظر ترجمته في Narcisse Faucon .op.cit,T1pp196-197.

Melchior (1803-1871)¹ (جنرال، سناتور وكاتب) هكذا وصفه أحد الذين ترجموا له والظاهر أن الرجل كان عسكريا محترفا، فقد التحق بالجيش وهو في مقتبل عمره في التاسعة عشرة تحديدا.

وبعد خمس سنوات من احتلال الجزائر العاصمة انتقل دوما إلى هذه الأخيرة، وتحت قيادة المارشال (برتراند كومت كلوز يل)² Bertrand³ comte Clauzel (1772-1842) شارك في الحملة العسكرية على معسكر وتلمسان بالغرب الجزائري، وفي نفس الوقت انكب بحماس على تعلم اللغة العربية⁴. ويقال أنه كان يعرف الوسط الجزائري جيدا⁵.

ومن سنة 1837م إلى سنة 1839 م شغل منصب قنصل بمعسكر⁶ وبعدها كلفه (مر يشال دي لاموريسير كريستوف لويس) De la moriciere Christophe-Louis- Léon (1806-1865)⁷ بقيادة الشؤون العربية بمنطقة وهران⁸ كلفه المارشال بيجو⁹ (توماس روبرت دي لا بيكونري) Bugeaud Thomas Robert de La piconnerie 1849-1748 بتأش شؤون الأهالي. وهو واحد ممن تركوا بصماتهم على ما سمي بالمكاتب العربية¹⁰ وفي سنة 1849م كلف العقيد دوما بإخماد تمرد بني سالم في ناحية الجزائر¹¹ وفي سنة 1853م، رقي إلى رتبة جنرال، وصار الجنرال سيناتور في سنة 1857م¹². وكان لدوما شرف معرفة الأمير عبد القادر عن قرب وقيل أنه أطلع الأمير على نظم فرنسا وعاداتها وتقاليدها يوم كان هذا الأخير أسيرا بفرنسا¹³. ومن

1- Narcisse Faucon .op.cit,T1pp196-197 أنظر ترجمته في -

1- Narcisse Faucon .op.cit,T1 pp196

3 -Paul Azan , les grands soldats de L'algerie , publication du comité national métropolitain du centenaire de L'algerie pp13-22

3-Narcisse Faucon .op.cit. T ,1,p,196

4-LOC .CIT

5-P aul Azan, op .cit ,pp80-83

6-Narcisse Faucon op .cit ,T ,1, p ,

7-Paul Azan ,op ,cit,pp 65 -83

8 -Narcisse faucon op.cit,t,p,196 48

9-Ibid,T,1,p,197

10-LOC .CIT

11- Paul Azan, op .cit, p57

12-Narcisse Faucon op.cit ,t,1,p,197

13-Ibid. ,T ,1,p,19

14-Mœurs et coutumes de l'Algérie ,p,16

بين كتابات الجنرال دوما: "بلاد القبائل الشرقية" صدر سنة 1846م. تقرير عن الوضع الحالي للمجتمع العربي" صدر سنة 1845¹، "تربية الباز في الجزائر"² خيول الصحراء وقد ساعده الأمير عبد القادر في تأليف هذا الكتاب، كما صدر لدوما كتاب آخر في سنة 1857م عن "القبائل".

وآخر كتاب ألفه الجنرال قبل رحيله سنة 1871 هو "الحياة العربية والمجتمع المسلم" الصادر سنة 1869م وينبغي الإشارة هنا ما دمت أتحدث عن كتابات دوما. إلى أن بعضهم اتهم الجنرال باستغلال المستعرب ونصير المسلمين الجزائريين "توماس إسماعيل إيرين" Ismaël Urbain Thomas صاحب القلم السيلال. الذي كان يكتب المقالات والكتب في حين كان دوما يكتبها بكتابة اسمه³.

ضم كتاب القبائل الكبرى⁴ بين دفتيه اثني عشر فصلا وقد تطرق المؤلفان إلى عدة قضايا كجغرافية المنطقة وقصة احتلال الفرنسيين لبحاية والأمير عبد القادر ببلاد القبائل وصراع هذا الأخير مع الفرنسيين بنفس الجهة المذكورة. ويهنا هنا **الفصل الثاني** الذي يتحدث عن حالة المجتمع القبائلي حسب تعبير الباحثين وقد تجاوزت صفحاته الخمسين. وفيه عالج الباحثان العسكريان عادات وتقاليد ومؤسسات هذا المجتمع والفصل يختلف في منهجه ومحتواه عن بقية فصول الكتاب الأخرى وهو أقرب إلى الدراسة الاثنوغرافية⁵. والظاهر أن نظرية التنافر إن صح التعبير، والاختلاف، والتناقض بين العرب

15- أنظر مقدمة جغلول لكتاب Daumas

Narcisse Faucon op.cit ,t,1,p,197 16

17 LOC .CIT 56

18LOC .CIT 1 Ch. ,R ,AGeron : (l'Algérie algérienne de napoléon à de gaulle) paris ,1980, p,20

1- Ch. ,R ,AGeron : (l'Algérie algérienne de napoléon à de gaulle) paris ,1980, p,20

"كان إسماعيل إيرين ربما هو أقرب الفرنسيين إلى المجتمع الجزائري . فهو بحكم اعتناقه للإسلام ومعرفته للغة العربية قد جعل نفسه واحدا من هذا المجتمع بحس بإحساسه ويفهم تقاليده ، وهو من جهة أخرى سان سيموني يؤمن بترقية المجتمع الأهلي وإخراجه من التخلف مع المحافظة على بعض قيمه في وجه الغزو الذي يتعرض له. وفي سنة 1840 تزوج إيرين من امرأة عربية من قسنطينة اسمها (جرمونة) وعاش معها فترة طويلة في الجزائر العاصمة وأنجب منها بنتا سماها (باية) كان زواجه على يد القاضي المسلم وعاش حياته مسلم العقيدة عربي المظهر واللسان وكان محل تقدير الجزائريين كما كان رؤساؤه الفرنسيون يحترمونه ويحتاجونه ولكن بعضهم كانوا يسيؤون إليه ويحتقرونه لاعتناقه الإسلام ولزواجه من عربية ولون بشرته وميلاده غير الشرعي ويبدو أنه ظل على إسلامه إلى أن أراد الزواج من فرنسية فكان عليه أن يعود إلى المسيحية ويتزوجها وكان عمره إذك خمسة وخمسين سنة. وقيل أنه أدخل ابنته في المسيحية أيضا " أنظر أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ج,6 صص,442-443 .

2-M, Daumas et M. Fabar , la grande Kabylie , études historiques paris , 1847

5-Charles – R AGeron , histoire de l'Algérie contemporaine , T ,2,pp,137,138.

والقبائل في كل شيء- مهما كان صغيرا، أو كبيرا- هي التي حرص الباحثان عليها أشد الحرص. حيث كانت تطل على القارئ في كل صفحة من صفحات البحث. تطرقا الباحثان إلى عادات، وتقاليد ومؤسسات مناطق عديدة من الجزائر زيادة على منطقة القبائل والظاهر أنهما قاما بجمع مادة البحث منذ النصف الثاني من ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى سنة نشر الكتاب أو قبل ذلك بقليل لأننا نعرف أن دوما التحق بالجزائر سنة 1835م.

والفصل في معظمه عبارة عن مقارنة بين عادات، وتقاليد، ومؤسسات منطقة القبائل مع عادات وتقاليد، ومؤسسات مناطق أخرى من الجزائر. لم ترد في الكتاب بأسمائها، وإنما نسبت إلى العرب. ويحاول الكاتبان إيهام القارئ أن لاشيء يجمع بين القبائل والعرب، لا رابطة دينية أو لغوية ولا عادات ولا تقاليد مشتركة، ولا حتى مصالح مشتركة، بل حتى الملامح والبنية مختلفة تماما وجه العربي بيضوي الشكل وسواعده طويلة بينما القبائلي مربع الوجه وقصير الرقبة العربي لا يخلق ذقنه إطلاقا بخلاف القبائلي الذي يخلقه إلى غاية السن الخامسة والعشرين حيث تكتمل رجولته فيترك لحيته كعلامة على نضجه¹. لقد اكتشفا شعبيين، لا شعبا واحدا² العداوة هي القاسم المشترك بينهما إن العرب والقبائل لا يتفقون إلا في محور واحد هو الكراهية فالقبائلي يكره العربي والعربي يكره القبائلي فهذا المقت المتأجج لا يمكن تفسيره إلا بشعور تقليدي توارثته الأجيال، كره بين عرق الغزاة (أي العرب) والعرق المقهور (أي القبائل) ذلك ما يؤكد الواقع المعيش بوجود لغتين مختلفتين³. الباحثان زعما أنهما وجدا أخيرا الأصل الذي ينحدر منه القبائل إن الدم المسيحي لا يزال يسري في عرق القبائلي وإن جزءا من القبائل أصليين وآخرون من أصل جرمانى⁴ وذهبا إلى حد التشكيك في عقيدة سكان المنطقة: لقد قبلوا القرآن تحت وطأة السيف ولكنهم لم يعتنقوا المبادئ الواردة فيه⁵.

1-M Dumas et M Fabar ,op.,cit., p21P.Lucas,J.C VAtin L'algerie des anthropologues,Paris,1982,105

2- أنظر كذلك الترجمة العربية لكتاب جزائر الأنثروبولوجيين، ترجمة، محمد يحياتن وآخرون الجزائر 2002 ص،112.
3-M Dumas et M Fabar ,op.,cit,p75. P.Lucas,J.C VAtin,op., cit.p,108.

4-M Dumas et M Fabar ,op.,cit. p ,75-76.

.1 Ibid, p,77

ليكا وفاتن المرجع نفسه،ص،119

5-M.dumas et M.fabre,op.cit. ,p,773

أما من الناحية السياسية: "فإن بلاد القبائل عبارة عن **سويسرا البدائية** فهي تتألف من قبائل مستقلة عن بعضها البعض على الأقل من ناحية الحقوق وهي تحكم نفسها بنفسها في شكل مقاطعات وحكومات مختلفة¹. والقبائل والعرب ليس لهم عادات وتقاليد مشتركة. أو حتى متشابهة كما أشير إلى ذلك سابقا. ولكن بعض العادات القبائلية تتشابه مع مثيلاتها الفرنسية². وهم أي القبائل الأقرب إلى (الفرنسيين)³. "العربي بدوي غير مستقر يعيش تحت الخيمة، أما القبائلي فهو مستقر مرتبط بالأرض ويعيش في منزله"⁴ إن هذه الدراسة الأثنوغرافية المزعومة تنتمي إلى ما سماه سعد الله بسلاح **تقسيم الجزائريين**.

إن هناك أدلة كثيرة تؤكد عدم موضوعية، ونزاهة دراسة دوما، وزميله فبار. ذلك أننا لا نتوقع من الجنرال دوما بالذات أن يكون منصفًا. هو الذي قاد الحملات العسكرية للإعتداء على الجزائريين في قراهم ومداشرهم وفي مدغم، فأحال نهارهم إلى ليل حالك. وهو الذي كان يتلقى الأوامر من **عتاة المجرمين**، وكبار القتلة الذين استباحوا دماء الشعب الجزائري وانتهكوا حرمانه من أمثال بيجو، وكولزيل، لاموريسير الذين ذكرتهم سابقا. و دوما لا يخفي في بعض كتاباته ما كان **الاستعماريون يخططون له** بليل. فقد كتب قائلاً «إن هناك عدة اعتبارات تدفع اهتمام الرأي العام بفرنسا بمنطقة القبائل مساحتها الواسعة، خيراتها، سكانها قريبا من الجزائر العاصمة كونها منطقة **للتبادل التجاري** اشتهاها بالنزعة **الاستقلالية** منعتها الناتجة عن الجبال التي تحيط بها وأخيرا فقد شهدت السنوات الأخيرة اختلاف وجهات نظر عديدة حول السياسة الواجب إتباعها نحوها⁵».

يمكن اعتبار كتاب القبائل الكبرى أو بعبارة أخرى الفصل الثاني منه، بمثابة **برنامج سياسي**، أو بعبارة أخرى مشروع **استعماري واضح** لا دراسة أكاديمية محايدة. بدليل انتقال المؤلفين إلى العمل

1 -M.daumas et M.fabre,op.cit,p,44

2-Ibid p,p ,31,36,69,75,76,77

3- ليكار، المرجع نفسه، ص،112

4-M.daumas et M.fabre,op.cit, ,pp21-22

5-Daumas , mœurs et coutumes de l' Algérie ,p,p,154 .70

والنشاط اليومي لتجسيد المشروع الوارد في الكتاب، والداعي إلى «التكامل بين الشعب المعلم الفرنسي والشعب التلميذ البربري بين عمال صبورين وصناعيين وبين الطبقة المتفوقة، والمسيرة في آن واحد»¹.

العربي الشرير، والقبائلي الطيب هي الفكرة الأساسية التي خرج بها الباحثان، من المقارنة بين القبائل والعرب. ويبدو أن هذه الفكرة كانت جاهزة ومعدة سلفا منذوقت طويل قبل الحملة العسكرية الفرنسية على العاصمة الجزائرية سنة 1830م. ولكنها كانت تحتاج فقط لتكريب وإخراج لا يخلو من بريق حتى تقنع من يراد إقناعه. والظاهر أن صاحبها البحث كان يهدفان لتحقيق هدفين الأول ظريفي يخدم مسعى فرنسا في سبيل نشر سلطتها على كامل الأرض الجزائرية. ويتمثل الهدف الظريفي في استدراج الزعامات المحلية للتفاوض لتسليم منطقة القبائل للفرنسيين دون قتال أو مقاومة. لأن الفرنسيين كانوا يدركون بأن احتلال المنطقة لن يكون سهلا. ويبدو أن الأوامر أعطيت للجنود الفرنسيين للترويج لفكرة «العربي الشرير، والقبائلي الطيب» بين السكان².

والهدف الثاني بعيد المدى ذلك إن دراسة فبار ودوما دفعت الأسطورة القبائلية إلى الواجهة ودرشت «ما يسمى بالسياسة البربرية المعادية للعرب»³. سياسة فرق تسد التي أدارتها فرنسا ببراعة طيلة وجودها الاستعماري بالجزائر⁴. وقد تفنن الفرنسيون في استعمال هذا السلاح، أولا: بين فئات السكان "الحضر ضد الترك. ثم الحضر ضد العرب والعرب ضد الحضر الكراغلة. ثم اليهود ضد الحضر بأنواعهم. جرى هذا في المدن الجزائر تلمسان مستغانم قسنطينة البليدة المدية⁵. ثانيا: ثم داخل الفئات نفسها العرب: ضربوا القادة ببعضهم أيضا في غرب البلاد أو في شرقها. ففي الشرق شجعوا فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز ضد شيخ العرب ابن قانة الذي كان صهر الحاج أحمد". وفي الغرب فصلوا مصطفى بن إسماعيل، ومحمد المازري ثم سيدي العريبي، عن الأمير عبد القادر⁶. القبائل: وعندما دخلوا

1-Lucas ,VAtin,op. cit. , 104.

2- ليكا وفاتن المرجع نفسه ص 112 .

3-Charles –Robert AGERON ,op.,cit,T ,2,1381

4- أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي ، ج، 6، ص ص 299-300.

5- المرجع نفسه ، ج، 6، ص ص 202-302.

6- أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه ج، 6، ص ص 202-302.

بلاد القبائل. وسعوا الخلاف بين العائلات المؤثرة عائلة أورابح، ضد عائلة أوقاسي وعائلة أوقاسي، ضد عائلة سيدي الجودي وهذه ضد عائلة ابن زعموم.

" واستمر الضرب على هذا الوتر طيلة عقود ضد العرب بالعرب. والبربر بالبربر ¹ ."

إن فكرة تقسيم أبناء الوطن الواحد إلى أعراق عديدة وضرب هذا بذلك ظهرت في مصر أثناء حملة نابليون قبل أن تشد الرحال إلى الجزائر.. ففي كتاب وصف مصر الشهير وردت دراسة كتبها كوستاز عن النوبة والنوبيين.

ومن جملة ما كتبه قوله: «ترى من أين جاء لهذه الأمة كل هذا السمو الأخلاقي الذي يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول مهنة قومية! أينبغي أن نبحث عن السبب في ذلك في نوع الحياة التي يحياها كل من هذين الشعبين! ²».

ويقول أيضا «ولغة النوبيين رقيقة ليس فيها على الإطلاق هذه الأصوات الحلقية الشائعة في اللغة العربية والتي تبدو غريبة على الأذن الفرنسية حتى لتصدما عند سماعها إياها لأول مرة ومن الممكن كتابة هذه اللغة (النوبية) بحروف الهجاء الفرنسية دون أن يتحور بذلك نطق الكلمات، ولقد قمت بعدة تجارب في هذا الصدد ونجحت باعتراف أبناء النوبة أنفسهم ³». وفي الحقيقة فإن ملامح النوبيين أقرب إلى ملامح الأوربيين منها إلى ملامح الزنوج ⁴» ويبدو أن بعض الجهات في فرنسا نفسها لم تكن راضية تماما عن هذا الطرح الاستعماري. وقد علمتنا تجارب سابقة ولاحقة أن هذه المواقف تمثل دائما الاستثناء لا القاعدة وسط محيط يعلن كراهيته ويحارب بعداوته لكل ما له علاقة بالعرب والمسلمين. ومن الذين لم يترددوا في إدانة هذا الطرح وفضح أبعاده الاستعمارية، غوستاف لوبون Gustave Le Bon

1- أبو القاسم سعد الله : المرجع نفسه ج 6ص، 303.

2- علماء الحملة الفرنسية وصف مصر دراسات عن المدن والأقاليم المصرية ترجمة زهير الشاب مهرجان القراء للجميع، 2002، ج، 3، ص، 195.

3- المصدر نفسه ،ج، 3، ص، 198.

4- المصدر نفسه ،ج، 3، ص، 196.

(1841-1931) الذي كتب قائلا: «وظهر مما تقدم خطأ كثير من المؤلفين المعاصرين الذين رأوا أن يفرقوا بين العرب والبربر وذلك عندما تكلموا عن سكان بلاد الجزائر¹»:

«فزعموا أن البربر أهل حضر وزراعة، وأن العرب أهل بدو، وانتهوا إلى قولهم إن البربر أهل للتمدن وإن العرب غير أهل له.²» «ولكن نتيجة مثل هذه، تقوم على أساس باطل، وذلك أن العرب، والبربر أهل حضر، وأهل بدو على سواء³». وأن هذين الطرازين يصدران عن البيئة التي يكونون فيها باحقيقة، فترى العربي حضريا دائما في البقاع الخصبة من جزيرة العرب ومصر والجزائر. وتراه بدويا في الصحارى الرملية من تلك الأقطار⁴.

بدأت الأساطير تتوالى وتتكاثر بعد الأسطورة القبائلية، مثل أسطورة الحضر والبدو وأسطورة الشمال والجنوب. وأسطورة القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وأسطورة الغرب والشرق وأسطورة المسيحية والإسلام⁵. والكراهية والعداوة هي القاسم المشترك بين جميع هذه الأساطير ففي أسطورة الحضر والبدو على سبيل المثال يسعى الحضري جاهدا للقضاء على البدوي وهذا الأخير يتربص بغريمه الحضري وهكذا. ويبدو أن عدة تخصصات من العلوم الإنسانية ساهمت في صياغة هذه الأساطير، وقد امتدت الحمى إلى الأدب أيضا⁶. حيث كتبت روايات استوحت في معظمها هذه الأساطير⁷.

الخاتمة:

وفي الختام يحق لنا أن نؤكد أن أقلام الباحثين الفرنسيين العسكريين من بداية الاحتلال إلى غاية تأسيس جامعة الجزائر الاستعمارية، لم تختلف في شيء رغم البون الشاسع بين قلم العسكري الذي هو أقرب إلى الهاوي، وقلم الأكاديمي الذي عمل في إطار مؤسسة علمية هي جامعة الجزائر، ومع ذلك

1- غوستاف لوبون حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة، 2000، ص251.

2- غوستاف لوبون المرجع نفسه، ص، 252.

3- ن.م

4- غوستاف لوبون المرجع نفسه، ص، 252.

5-Lucas et vatin ,op.,cit ,p,15 85

6-Sakina Mes Saadi ,les romancières coloniales et la femme colonisée ,Alger ,1990,pp.59-80.

7- Ibid. ,pp,17,-58

جندا قلميها ووضعاه في خدمة صانع القرار السياسي، وتجسد ذلك في هذا الكم الهائل من الدراسات والأبحاث والمكتبيات العلمية، والتي تحولت مع مرور الوقت إلى معاول هدم وتخريب وحدة شعب.

وظهرت نتائج هذه الأبحاث بصورة واضحة في تلك الأسطورة التي صنعوها في ليلة ليلاء في مخابريهم، وسموها الأسطورة القبائلية.

مصادر ومراجع الدراسة

المراجع العربية:

- 1- أحمد السليماني: تاريخنا القديم من مرآة الغرب مجلة الدراسات التاريخية، العدد5، السنة 1408 - 1988.
- 2- جمال قنان: مدرسة التاريخ الاستعماري بين الأيديولوجية، والموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد الخامس .
- 3- سليمان مظهر: حاجة علم النفس الاجتماعي للبحوث التاريخية ضغط المدرسة الاستعمارية على تطور البحث العلمي في ميدان علم النفس الاجتماعي، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الخامس.
- 4- عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، (ط5)، المركز الثقافي العربي، 1996، الكتاب الأول.
- 5- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ط3) بيروت، 1990، ج 6.

المراجع المترجمة

- 1- علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، ترجمة زهير الشايب، مهرجان القراء للجميع، 2002، ج3.
- 2- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مهرجان القراء للجميع مكتبة الأسرة 2000.
- 3- ليكا وفاتن: جزائر الأنثروبولوجيين، ترجمة، محمد يجياتن وآخرون، الجزائر2002.
- 4- محمد الشريف ساحلي: تخلص التاريخ من الاستعمار، ترجمة محمد هناد محمد الشريف بن دالي حسين منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال الجزائر 2002.

المراجع الأجنبية:

1-Alfred Bel ,René Basset in revue africaine ,(N,(N° 65,1924).

- 2-André julien , histoire de l'Algérie contemporaine presses universitaires de France ,1964.
- 3-Benjamine stora ,histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954 paris éditions la découverte 1999.
- 4- Ch. ,R ,AGeron : l'Algérie algérienne sous napoléon III (l'Algérie algérienne de napoléon à de gaulle) paris ,1980.
- 5-Ernest Mercier , Histoire de l' Afrique septentrionale (Berbérie) Depuis les temps les plus reculés jusqu 'a la conquête française,(1830) Paris , 1888.
- 6-Eugène Albertini , Stéphane Gsell(1864-1932)Bibliographie des Travaux de Stéphane Gsell in Revue africaine(N° 73 année1932
- 7-M,Daumas et M. Fabar , la grande Kabylie , études historiques paris , 1847.
- 8-Mahfoud Ka dache l'utilisation du fait Berbère comme facteur politique dans l'Algérie coloniale actes du premier congrès d'études méditerranéennes d' influence arabo- Berbère , Alger ,1973.p.276.
- 9-M.H. masse les études arabes en Algérie 1830-1930, in in Revue africaine(N° 74 ,1933)..p,235.Revue africaine(N° 49 , année 1905.
- 10-Narcisse Faucon ,le livre d'or de l'Algérie ,paris ,1889
- 11-Paul Azan , les grands soldats de L`algerie , publication du comité national métropolitain du centenaire de L`algerie.
- 12-R. Le tourneau ,le moyen âge et les temps modernes (revue Africaine, centenaire de la société historique Algérienne ° 1956.)
- 13-Sakina Mes Saadi, les romancières coloniales et la femme colonisée , Alger ,1990,pp.59-80.
- 14-Stéphane Gsell, Histoire et historiens de l'Algérie paris ,1931.
- Yves la Coste Ibn Khaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde (5 édition) paris 1980,p,87,p.lucas et J .c. vatin ,l'Algérie des anthropologues , paris ,1982,p,15.